بناء الإنسان المستخلف: رؤية قرآنية في تأصيل الوالدية الرسالية وإعداد الأسرة حضارياً

دراسة تحليلية موضوعية

Building the Khalifah Human: A Quranic Vision for Anchoring Missional Parenting and Civilizational Family Preparation *(An Objective Analytical Study)*

الدكتورة هداية الله أحمد الشاش

shash980@gmail.com

الأستاذة المشاركة في التفسيروعلوم القرآن وعميدة/ الأستاذة المشاركة بكلية العلوم التربوية والنفسية بجامعة الحكمة، الولايات المتحدة الأمريكية

Dr. Hidayatullah Ahmad Al-Shash

Associate Professor, Quranic Exegesis and Quranic Sciences Associate, Dean/Professor, Faculty of Educational and Psychological Sciences at Al-Hikma University, USA..

ABSTRACT

This research explores the Quranic vision for family building as the primary cradle for human succession and the production of righteous individuals. The study addresses the growing gap between the "Quranic educational models" and "contemporary family reality," where material care often overshadows spiritual upbringing. The research aims to clarify the concept of "Missional Parenting," analyze the leadership roles of motherhood and fatherhood in Divine Revelation, and examine the correlation between parental righteousness and the future of offspring. Structured into five sections, the study discusses the existential foundations of the family, foundational criteria before birth, the engineering of parental leadership, and the intergenerational transfer of blessings. The findings emphasize that parental integrity is the ultimate investment in children's futures and that the Quran provides a comprehensive framework for reforming society through the family unit. The study recommends shifting the parental mindset from "providers" to "value investors" and integrating "Missional Parenting" into educational curricula and pre-marriage training.

Keywords: *Khalifa, Missional Parenting, Quranic Vision, Civilizational Family, Human Building*

الكلمات المفتاحية: بناء الإنسان، الخليفة، رؤية قرآنية، تربية والدية، أسرة حضارية

مقدمة

الحمد لله الذي جعل الأسرة لبنة البناء الأولى، ومستودع القيم، ومنطلق الاستخلاف في الأرض، والصلاة والسلام على نبينا وسيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الذين ربّوا جيلاً فتح القلوب والعقول بالوحي والعمل، أما بعد، فإن التصور القرآني للكون والحياة ينطلق من حقيقة كبرى، وهي أن الإنسان خليفة الله في أرضه، وأن هذا الاستخلاف لا يتحقق بمجهود فردي معزول، بل عبر محضن إنساني مستقر يسمى "الأسرة"، وهي التي أرادها القرآن أن تكون مدرسة لإنتاج الإنسان الصالح المصلح، وأن التربية الوالدية في المنظور القرآني تعد عبادةً يتقرب بها العبد إلى ربه، وليست مجرد رعاية فطرية.

مشكلة البحث

تكمن مشكلة البحث في الفجوة المتسعة بين "النماذج التربوية القرآنية" وبين "الواقع الأسري المعاصر"، حيث طغت الجوانب المادية والرعاية الجسدية على حساب التزكية الروحية والإعداد الرسالي للأبناء، ويسعى هذا البحث للإجابة عن تساؤل محوري: كيف رسم القرآن الكريم خارطة الطريق لتأسيس أسرة قادرة على تحقيق الاستخلاف، وما هي الضمانات الإيمانية والتربوية التي وضعها الوحي لحماية هذا الكيان؟

أهمية البحث

تتجلى أهمية هذا البحث في كونه استنطاقاً للوحي القرآني لاستخراج القواعد التربوية الحاكمة لبناء الإنسان، وربط الواقع الأسري المعاصر بمرجعية الوحي الصافية، كما تنبع أهميته من تفعيل النموذج الأسري الذي رسمه القرآن كحصن حصين لمواجهة تيارات التفكك القيمي، وتقديم الرؤية

القرآنية كمنهج عملي (دستور تربوي)، يبدأ من النية والاختيار قبل الوجود، لضمان استمرارية رسالة الاستخلاف وصناعة الإنسان الرباني.

أهداف البحث

- بيان مفهوم "الوالدية الرسالية" في القرآن الكريم.
- استعراض النماذج القيادية للأمومة والأبوة في الوحي ودراسة أبعادها التربوية.
- تحليل العلاقة التبادلية بين صلاح الآباء ومستقبل الأبناء في الدنيا والآخرة.

فالبحث ينتظم في مقدمة، وخمسة مباحث:

المبحث الأول: المقومات الوجودية والتربوية للأسرة في القرآن.

المبحث الثاني: معايير التأسيس قبل الوجود: الوالدية الرسالية.

المبحث الثالث: السيادة الوجدانية: الأمومة كصمام أمان للرسالة.

المبحث الرابع: القيادة الحوارية: الأبوة من الرعاية إلى الهداية.

المبحث الخامس: انتقال البركة والشؤم بين الأجيال.

إنّ "بناء الإنسان المستخلف" هو المشروع الأكبر الذي تنهض به الأمة، وإنّ استعادة الأسرة لدورها الحضاري هو المفتاح الأول لاستعادة السيادة الأخلاقية، فالاستخلاف يبدأ من "ربط الله على القلوب" داخل البيوت، لينتهي بعمارة الأرض بالعدل والقيم.

فها هنا تفصيل لمحتويات البحث فيما يلي:

المبحث الأول: المقومات الوجودية والتربوية للأسرة في القرآن

يضع القرآن الكريم الحجر الأساس لبناء الكيان الإنساني من خلال رؤية تربوية شمولية؛ لا تكتفي بضبط السلوك الظاهري، بل تنفذ إلى أعماق النفس البشرية لتزكيتها.

إن فهم الأسرة في المنظور القرآني يبدأ من إدراك الفارق العميق بين تصور "الرعاية" كعملية فطرية فحسب، ليتعداها الى المعنى الشمولي للرعاية وهو توفير الاحتياجات التربوية والتزكوية؛ كعملية رسالية تهدف إلى إعداد الفرد لحمل أمانة الاستخلاف في الأرض.

ولذلك فإن هذا البحث يقوم على مخطط مفاهيمي، يمثل (الاستخلاف الأسري) في شكل مثلث متكامل الأركان:

- **القاعدة :** وتتمثل في **الصلاح الذاتي للوالدين**، وهو المنبت الطيب والأساس العقدي الذي يسبق وجود الطفل.
- **الأعمدة:** وهي **التزكية الروحية والقدوة العملية**، أو ما يُعرف بالتربية بالحال، وهي المحرك اليومي الذي يربط القيم بالسلوك.
- **القمة:** وهي الغاية النهائية المتمثلة في صناعة **جيل رباني مستخلف**، ينهض بمهمة عمارة الأرض وإقامة منهج الله، ومن خلال هذا المثلث، يتضح أن أي خلل في القاعدة أو الأعمدة سيؤدي حتماً إلى تعثر الوصول للقمة الحضارية المنشودة.

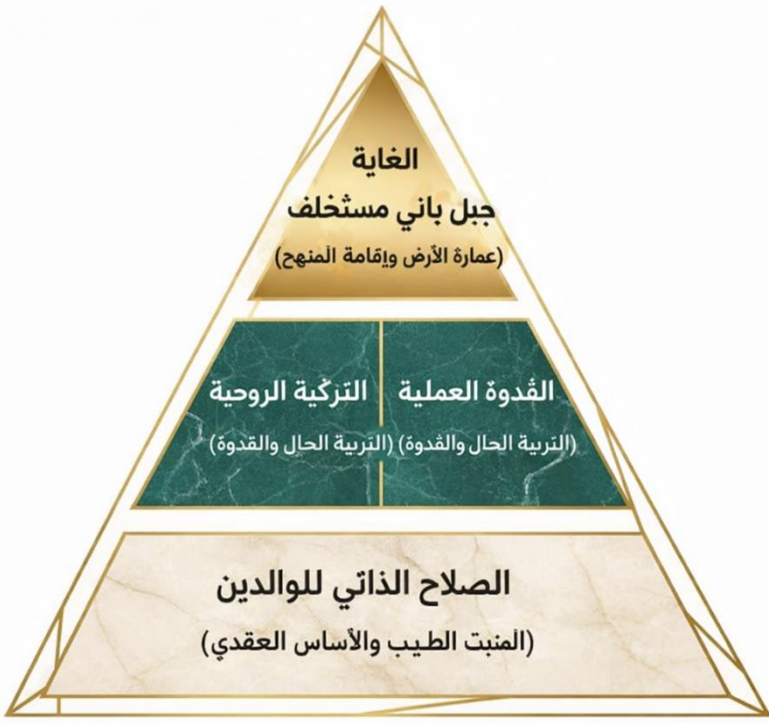

المخطط المفاهيمي لهندسة الاستخلاف الأسري

يُظهر المخطط أعلاه العلاقة العضوية بين أركان التربية في القرآن الكريم، حيث:

- القاعدة العريضة : هي شرط الاستحقاق (الصلاح قبل الإيجاد).
- الأعمدة الحاملة : هي الممارسة التشغيلية التي تحول القيم من "نص" إلى "واقع" عبر القدوة.
- القمة الثمرة : هي النتيجة الحضارية التي تبرر وجود الأسرة في المنظومة الإسلامية.

وبذلك يتضح أن "الوالدية الرسالية" هي عملية هندسية تبدأ بصلاح الذات؛ لتنتهي بإصلاح العالم.

التنشئة بين "التربية" و "التزكية"

إن المتتبع لآراء المفسرين فيما يختص بالتربية يدرك أن دور الوالدين عندهم يتجاوز التنمية المادية إلى الصياغة النفسية (التربية)، ومن ثم تعاهد تلك الصياغة، وهو ما يعرف (بالتزكية) بغية الحفاظ على استقرار الروح بدوام صلتها مع خالقها.

فالتربية عندهم "هي إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام"[1]، والمربي في القرآن هو الذي يسوس النفس برفق ويتعهدها لتصل إلى كمالها المقدر لها.

قال تعالى: ﴿**واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**﴾[2]، إلزم غاية التواضع لوالديك، وألن لهما جانبك مودةً ورأفةً، ممتثلاً لأمرهما في كل ما ليس فيه إثم، ومسارعاً إلى مرضاتهما فيما يفضلانه من أمور، وليكن هذا الخضوع نابعاً من إخلاصك لله وطلبك لثوابه، لا عن رهبةٍ من سطوة أو طمعٍ في مصلحة دنيوية، فإنما الأعمال بالنيات،

---

1 المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني: 184/1.

2 سورة الاسراء، الآية 24.

والأجر معلقٌ بما وقر في القلب من الرحمة والاحتساب، ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ أي: واجعل لهما نصيباً من دعائك بالرحمة والمغفرة في حياتهما وبعد مماتهما، وفاءً لما بذلاه من جهد وعناية في تربيتك وتنشئتك حين كنت صغيراً[3].

ونفهم من هذا أنه كلما ازدادت التربية ازداد الحق، وكذلك من تولى تربية الإنسان في دينه ودنياه تربية صالحة غير الأبوين فإن له على من رباه حق التربية[4].

أما التزكية: والتي يتكرر ورودها في القرآن الكريم، فمع كل تكرار يتجدد المعنى المصاحب لها، فإن معنى يزكيهم هو "تطهيرهم من رذائل الأخلاق، ودنس النفوس"[5]، وهي كذلك "تطهير الشيء وتنميته معًا"[6]، ونجدها أيضاً بمعنى "تطهير القلوب من الأخلاق الذميمة، وتنميتها بالأعمال الصالحة"[7]، ويرى آخرون أنها "صلاح النفس بتخليصها من الفساد، وحملها على ما يوجب كمالها"[8]، كما قال تعالى: . ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[9] .

إذن تتجلى الوالدية في المنظور الإسلامي كعملية **هندسة للهوية** داخل المحضن الأسري، فهي تتجاوز مجرد الإنجاب والرعاية المادية لتصبح **فعلاً إيمانياً استراتيجياً** غايته إعداد جيل مؤتمن على القيم. وبموجب هذه الوظيفة الاستخلافية، يضع الآباء اللبنات الأولى في تكوين شخصية الأبناء، وتأهيلهم للقيام بدورهم الجوهري في عمارة الأرض وبلوغ ذروة التزكية، مما يساهم في النهوض الحضاري للأمة بل للإنسانية.

---

3 معالم التنزيل، البغوي: 5/ 89-90 بتصرف.

4 التفسير الميسر، ثلة من المفسرين: 519.

5 جامع البيان ، الطبري: 87/3 .

6 المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني: 184/1.

7 الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: 130/2.

8 الكشاف، الزمخشري:771/4.

9 سورة الشمس، آية 9.

وعليه فإن بناء المستخلف الصغير الذي ولد بفطرة سليمة عابدة، يتطلب تصوراً نقياً للنفس عند المربي، يجعل من أدوات بناء تلك الذات الصغيرة حيةً فاعلةً، قابلةً لتنقية معدنه الانساني كلما اعتراه صدأ الحياة أو لوثته أدرانها، ذلك أن نقاء الأصل كفيلٌ برد الجوهر الى حقيقته مهما اعتراه من نقص أو خلل.

التكليف الشرعي: أمانة الوقاية الوالدية

إن الرؤية القرآنية للتربية الوالدية تُرشِّد الفهم لطبيعة الدور المناط بالوالدين، فلا يكون كما يفهمه ويؤديه البعض؛ منهمكاً في توفير كل ما هو مادي فحسب، بل هي مسؤولية شرعية تحرص على بناء كل ما هو تزكوي، ينهض بالروح ويهذب النفس، وهذه هي حقيقة الرعاية التي يهدف القرآن إلى تأسيسها في وعي المربين.

قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[10]، وجاءت ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ إن اتقاء هذه الأهوال العظيمة لا يكون إلا بلزوم طاعة الله ظاهراً وباطناً، والمسارعة إلى التوبة من كل ما يوجب سخطه وعذابه، مع امتداد هذه المسؤولية لتشمل الأهل والأبناء حمايةً وتأديباً وتعليماً، فلا تتحقق نجاة العبد إلا بقيامه بحق الله في نفسه أولاً، ثم فيمن استرعاه الله إياهم من زوجة وولد وكل من دخل تحت ولايته وتدبيره[11].

ووقاية الأهل تكون بأن ينهج لهم سبل الخير، ويحذرهم سبل الشر، ولا يتركهم هَمَلاً"[12]، وهو الحكم بوقاية الإنسان نفسه وأهله النار، وقيل: معناه أنتم قوا أنفسكم ناراً، وأهلوكم؛ ليقوا أنفسهم ناراً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قوا أنفسكم وأمروا أهليكم بالذكر والدعاء حتى يقيهم الله بكم، وعلى الرجل إصلاح لنفسه بالطاعة، وإصلاح لأهله إصلاح الراعي للرعية "[13].

---

10 سورة التحريم، الآية 6.

11 تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي: 873 بتصرف.

12 الكشاف، الزمخشري: 566/4.

13 الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: 194/18-196. بتصرف يسير.

وعليه فإن "السياسة الأسرية" تعد فرضاً عينياً، والتهاون فيها هو تهاون في أصل النجاة.

إن هذا المزيج المتجانس من العاطفة الوالدية والمسؤولية الشرعية (التربية والتزكية)، هما اللذان يصنعان من الوالدان حارسان للنفس من الفساد، ومزكيان للروح من الغواية لتكون صالحة لعمارة الأرض، وبدون هذا التصور تتحول الأسرة الى خواء يخلو من المعنى والهدف.

المسؤولية الوالدية وأدوات التفعيل التربوي

المسؤولية الوالدية في القرآن ليست مجرد تكليف قانوني كما تصوره دساتير ومنظمات العالم المعاصر، بل هي "عقد استخلاف" يربط الآباء بالأبناء برباط العقيدة والمصير، وتتجلى هذه المسؤولية في أركان أربعة:

الأول: التوحيد

كما في وصية يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[14].

الثاني: تجنب الانحراف

كما في وصية لقمان لابنه: ﴿**وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّه إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[15]، لقد خلّد الله عز وجل ذكر هذا العبد الصالح بأبهى صورة حين وهبه الحكمة، ونقل لنا وصاياه لفلذة كبده الذي يتربع على عرش محبته وشفقتة، فكان من الطبيعي أن يخصه بخلاصة

---

14 سورة البقرة، الآية 133.

15 سورة لقمان، الآية 13، لقد خاطبه بكلمات تفيض بالوعظ، جامعاً فيها بين التوجيه والتحذير الممزوجين بالترغيب والترهيب، حيث ألزمه بصدق التوجه لله وحده وحذره من مغبة الشرك، موضحاً له العلة في ذلك بقوله تعالى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}، وتتجلى عظمة هذا الظلم في كونه مساواةً باطلة بين مخلوقٍ خُلق من طين وبين الخالق مالك كل شيء، فليس هناك أقبح ممن يمنح العبادة لمن لا يملك نفعاً ولا ضراً ويصرفها عن مدبر الأمر كله، كما لا يوجد جرمٌ أكبر من أن يهبط الإنسان بنفسه التي أكرمها الله وخلقتها لتوحيده إلى أدنى المنازل بجعلها خاضعةً لمن لا يستحق، وبذلك يكون قد جنى على نفسه ظلماً فادحاً، (ينظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي: 648 بتصرف)

معرفته وأغلى ما يملك من رشد، لذا استهل نصحه بأعظم الحقوق وأولاها وهو إخلاص العبادة لله وحده واجتناب الشرك به[16].

الثالث: التحصين الإيماني

وقد ورد صريحاً في تعويذ امرأة عمران لمريم وذريتها من الشيطان: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[17]، وعن السدي: أن امرأة عمران ظنتّ أن ما في بطنها غلامٌ، فوهبته لله، فلما وضعت إذا هي جارية، فقالت معتذرة إلى الله: " رب إني وضعتها أنثى وليس الذكر كالأنثى "، تقول: إنما يُحرّر الغلمان، فيقول الله: " والله أعلم بما وضعت "[18]، لقد تطلعت نفسها أن يرزقها الله مولوداً ذكراً، ظناً منها أنه الأقدر على القيام بشؤون الخدمة والأعظم أثراً في هذا المقام، فكان في قولها نوع من الاعتذار لربها، فجاء الرد الإلهي: ﴿والله أعلم بما وضعت﴾، تأكيداً على أن علمه سبحانه محيط بحال المولودة وغايتها قبل أن تدرك أمها كنه ما وضعت، فلا حاجة لإخباره بما هو أعلم به منها.

الرابع: الدعاء الوالدي كضمانة غيبية

وهو منهج الأنبياء في الاعتراف بأن الهداية منّة إلهية، كما جاء على لسان زكريا عليه السلام، حين دعا الله أن يهبه غلاماً، فقد خصّ هذا الغلام قبل أن يولد بسؤال الله له أن يجعله رضيّا: ﴿يرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[19]، أي مرضياً عندك وعند خلقك، تحبه وتحببه إلى خلقك في دينه وخلقه[20]، وقيل: براً تقياً مرضياً[21].

---

16 تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: 335/6-337 بتصرف.

17 سورة آل عمران، الآية 36.

18 تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: 35/2.

19 سورة مريم، الآية 6 .

20 تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: 214/5، جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري: 444/15-446.

21 معالم التنزيل، البغوي: 223/5.

مفتاح التوفيق الإلهي

يترافق مع الأركان الأربعة المشار اليها آنفاً محطةٌ بالغة الأهمية هي بمثابة المفتاح الذي لا يعجزه بابٌ أُغلِق، جديرةٌ بأن تسمى **"مدرسة الدعاء الوالدي"** تلك التي تحوّل التضرع إلى أهداف تربوية:

- **زكريا عليه السلام يطلب النوعية:** كما في قوله سبحانه و تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[22]، حين عاين زكريا عليه السلام براهين القدرة الإلهية وهي تسوق لمريم ثمار الشتاء في قيظ الصيف وفواكه الصيف في زمهرير الشتاء، انبعث في قلبه رجاءٌ لم يقطعه اليأس، فطمع في الذرية رغم ما حلّ ببدنه من وهن العظم واشتعال الرأس شيباً، ورغم كون امرأته قد بلغت من الكبر عتياً مع عقمها، فتوجه إلى بارئه بقلبٍ يملؤه اليقين، مناجياً إياه في خفاءٍ وتضرع، وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي: ولداً صالحاً ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[23]، فالواجب على الإنسان أن تضرّع إلى خالقه في هداية ولده وزوجه بالتّوفيق لهما، والهداية والصلاح والعفاف والرعاية، وأن يكونا معينين له على دينه ودنياه حتى تعظم منفعته بهما في أولاه وأخراه[24]، وقيل: دعا زكريا عليه السلام ربه سبحانه و تعالى أن يرزقه ذرّية طاهرة الأخلاق، طيّبة الآداب، لتكمل النعمة الدينية والدنيوية بهم، فاستجاب له دعاءه[25].
- **إبراهيم عليه السلام يطلب الاستمرارية:** حين قال: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا﴾[26]، أي "اجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا

22 آل عمران، الآية 38.

23 تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: 38/2.

24 الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: 73/4.

25 تفسير الكريم الرحمن، السعدي: 129.

26 سورة البقرة، الآية 128.

نشرك معك في الطاعة أحداً سواك، ولا في العبادة غيرك" [27]، لقد ابتهلا إلى ربهما بأن يمنّ عليهما وعلى ذريتهما بحقيقة الإسلام التي جوهرها خشوع القلب وتسليمه التام لخالقه، وهو التسليم الذي يتبعه بالضرورة انقياد الجوارح واستقامتها، كما سألاه: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، طلباً لتعليمٍ يقوم على المشاهدة والبيان ليكون أرسخ في النفس وأبلغ في التأثير، ويُحتمل أن يكون المقصود بالمناسك هنا مناسك الحج بخصوصها أو أن المعنى يتسع ليشمل شرائع الدين ووجوه العبادات كافةً كما يقتضي عموم اللفظ، إذ إن النسك في أصله هو التعبد وإن غلب استخدامه في أعمال الحج، فكان جوهر دعائهما هو طلب التوفيق لتحصيل العلم النافع وإتباعه بالعمل الصالح، وإدراكاً منهما أن العبد –مهما بلغت درجته– لا يخلو من تقصير، ويحتاج إلى التوبة قالا: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[28]، وأما قوله: ﴿ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ فإنهما خصا بذلك بعض الذرية، لأن الله تعالى ذكره قد كان أعلم إبراهيم خليله عليه السلام قبل مسألته هذه أن من ذريته من لا ينال عهده لظلمه وفجوره، فخصا بالدعوة بعض ذريتهما[29] .

- **عباد الرحمن يطلبون الأثر المتعدي:** حين قالوا: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[30]، أي الذين يرغبون إلى الله في دعائهم ومسألتهم بأن يقولوا: ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا ما تقرّ به أعيننا من أن ترياهم يعملون بطاعتك[31]، أولادا أبراراً أتقياء، يقولون اجعلهم صالحين فتقر أعيننا

27 تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: 408/1.

28 تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي: 66.

29 جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري: 544/2.

30 سورة الفرقان، الآية 74.

31 جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري: 303/19.

بذلك، فليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله عز وجل[32]، وقيل: أن يري الله العبد المسلم من زوجته، ومن أخيه، ومن حميمه طاعة الله، لا والله ما شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولداً، أو ولد ولد، أو أخاً، أو حميماً مطيعاً لله عز وجل، وقيل: ﴿قرة أعين﴾ يعبدونك، ويحسنون عبادتك، ولا يجرّون علينا الجرائر[33] .

- **بينما يطلب العبد عند نضجه الشمولي صلاح الذرية:** فيقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذريتي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ المسلمين﴾[34]، فحتى إذا بلغ أشده أي: قوي وشب وارتجل ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ أي: تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه[35]، فحين تكاملت حجة الله عليه، وسير عنه جهالة شبابه وعرف الواجب لله من الحق في بر والديه[36] دعا وقال: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾، ثم دعا لذريته أن يصلحهم الله تعالى، لأن صلاحهم يعود له لقوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِي﴾[37].

وبهذا يتحول الدعاء من "ملاذ أخير"، إلى "خطة عمل أولية"، يضبط بها الوالدان بوصلة التربية نحو معالي الأمور، مستنزلين توفيق الله لإتمام ما عجزت عنه الوسائل البشرية.

وبناءً على ما تقدم من تأصيل لمفاهيم الاستخلاف والتزكية في المحضن الأسري، يمكننا بلورة الفوارق الجوهرية بين النمط الأسري

---

32 معالم التنزيل، البغوي: 99/6.

33 تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: 134/6.

34 سورة الأحقاف، الآية 15.

35 تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: 281/7.

36 جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري: 115/22.

37 تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي: 781.

السائد القائم على مجرد الرعاية العامة، والنمط القرآني المنشود القائم على الاستخلاف، وذلك من خلال الجدول الآتي:

وجه المقارنة	الأسرة الرسالية (الاستخلاف)	الأسرة التقليدية (الرعاية)
الهدف الأسمى	**التزكية وعمارة الأرض بالقيم**	النجاح الدنيوي والمادي
دور الوالدين	**مربٍّ ومستثمر في الروح (قدوة)**	ممول وحامٍ للجسد
علاقة الأبناء	**امتداد رسالي واستمرارية للسعي**	امتداد بيولوجي ووراثي
المرجعية	**الوحي والمنهج القرآني**	الأعراف والموضة الاجتماعية

المبحث الثاني: معايير التأسيس قبل الوجود: الوالدية الرسالية:

إن العملية التربوية في الإسلام لا تبدأ من لحظة الميلاد، بل تمتد جذورها إلى ما قبل اقتران الزوجين، وإن اختيار الزوج أو الزوجة في المنهج القرآني هو أول "قرار تربوي" يتخذه الوالدان تجاه ابنائهما، حيث يتم وضع اللبنات الوراثية والبيئية التي ستشكل هوية الجيل القادم، مما يجعل مرحلة ما قبل التأسيس جزءاً لا يتجزأ من واجبات الاستخلاف فيها.

معيار "الطيب" وفلسفة الاختيار:

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ۖ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ

كَرِيمٌ﴾[38]، ترِد كلمة ﴿الطيبات﴾ و ﴿الطيبين﴾ في كتاب الله العظيم للدلالة على التنزيه، ؛ حيث إن الطيبين من الناس لا يصدر عنهم إلا الطيب من القول[39]، إلا أنه يحمل قاعدة اجتماعية: "إن الله جعل الكلمات الطيبات، والأفعال الطيبات، والأشخاص الطيبين لبعضهم البعض".

والطِيبُ هنا هو "صلاح المنبت"، والأحاديث النبوية تقرر أن حق الطفل يبدأ باختيار أمه وأبيه: " تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس"[40] ، فالبيئة التأسيسية للزوجين هي التي تحدد هوية الفرع.

إصلاح الزوجة كشرط لوراثة النبوة

صلاح الزوجة أساسٌ، لأنها وعاء الخِلقة وأساس التنشئة والخُلق، وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال مفسراً لمعنى ﴿وَأَصْلِحْنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾[41]: هي مِنَّةً وتفضلاً على عبده زكريا عليه السلام، أنها "كانت عقيماً لا تلد، فجعلها الله تلد"، وقيل:. "كانت سيئة الخلق فأصلح الله خلقها"، أي: استجبنا له دعاءه ووهبنا له على الكبر ابنه يحيى عليه السلام، وجعلنا زوجته صالحة في أخلاقها وصالحة للحمل والولادة؛ بعد أن كانت عاقرًا، ثم يصف الأسرة الصالحة بأنهم كانوا يبادرون إلى كل خير، ويدعوننا راغبين فيما عندنا، خائفين من عقوبتنا، وكانوا لنا خاضعين متواضعين[42].

فإصلاح المحضن (الأم) كان مقدمة ضرورية لميلاد "الابن"، والبيت المضطرب لا ينتج ذرية مستخلفة، وإصلاح الذات والزوج هو "التأهيل المسبق" لاستقبال الهبة الإلهية.

---

38 سورة النور /26

39 جامع البيان عن تفسير آي القرآن، الطبري: 19/146-150.

40" العرق دساس" أي دخّال بالتشديد، لأنه نزع في خفاء ولطف، ومعناه أن الرجل إذا تزوج من منبت صالح، جاء الولد يشبه أهل الزوجة في الأعمال والأخلاق، (ينظر: غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، السفاريني: 2/419.)

41 سورة الأنبياء، الآية 90.

42 التفسير الميسر، مجموعة من المفسرين: 329.

"إن غرس التوحيد في روع الناشئة هو بمثابة تزويدهم ببوصلة وجودية تحميهم من الانجراف خلف الماديات، وتجعل من الوالدين وسيطاً لتفعيل الاتصال بالخالق، وتحقيق غاية الاستخلاف. وبما أن الأسرة ليست جزيرة معزولة، بل هي الثغر الأول للإصلاح الكوني، فإن أي خلل في بنائها القيمي يعد ثلمة في جدار الأمة؛ لذا يغدو إحياء هذا المحضن وتزكيته هو المقدمة الضرورية والشرط الأساس لبناء واقع حضاري جديد" [43].

ومما سبق يتضح بجلاء أن جودة "الفرع" مرهونة بجودة "الأصل"؛ وإصلاح النفس واختيار الزوج الطيب هما الضمانة الحقيقية لاستقرار المحضن الأسري.

إن القرآن الكريم يرشدنا إلى أن "الوالدية" هي وظيفة تبدأ بالاستعداد النفسي والروحي قبل أن تكون واقعاً بيولوجياً.

المبحث الثالث: السيادة الوجدانية: الأمومة كصمام أمان للرسالة

تمثل الأم في القرآن الكريم "العمق الحضاري" للأسرة، فهي ليست مجرد وعاء للإنجاب، بل هي الصانعة الأولى للقيم والموجهة الكبرى للوجدان. ومن خلال استعراض النماذج النسائية في القرآن، نجد أن الأمومة العابدة قُدمت كفعل بطولي يتطلب أعلى درجات الإيمان، اليقين، والذكاء في التعامل مع الأزمات وصناعة القادة.

امرأة عمران وعبادة "النذر"

الأمومة في القرآن تبدأ بـ "تحديد الهدف"، فهذه امرأة عمران لما سألت الله أن يسلِّم مافي بطنها كان أولى تصورات السلامة لديها أن يكون من العاملين لهذا الدين، بأن يكون محرراً من سلطان الدنيا، موهوباً لرضا خالقه فلم تطلب ولداً للمؤانسة، بل طلبته "للمسجد"، وهذا يسمى في التربية الحديثة "الرؤية الاستراتيجية للطفل"، حيث يوضع الهدف قبل الميلاد.

43 التربية الوالدية: رؤية منهجية قرآنية، هشام الطالب وآخرون: 52، 118

قال تعالى حكايةً عن أم مريم: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾[44]، والمحرر هو المخلَّص للعبادة، الذي لا يشوبه شيء من أمر الدنيا[45]"، وهو ذلك "العتيق المخلص للعبادة المتفرغ من شواغل الدنيا"[46] .

أم موسى عليه السلام وفقه " التوكل "

يقرر التصور القرآني حقيقةً في غاية الأهمية تجعل من الأمومة شرفاً ومهمةً و "صناعة ثقيلة"، تتجاوز الرعاية اليومية إلى التخطيط لمستقبل الأمة، لقد علّمنا القرآن أن صلاح العالم يبدأ من نية صادقة في قلب أم، وأن حماية الأجيال تقتضي قلوباً مربوطة بحبل الله، قادرة على التضحية والتفويض لله بكل ثباتٍ ويقين.

ولعل أبرز مثالٍ حيٍّ يجسد هذا التصور هو أم موسى عليه السلام، تلك المرأة المؤمنة التي استجابت لوحي باريها، فاستأمنت أمواج البحر المتلاطمة على ولدها، حين عزَّ أمان البشر، فيصف القرآن حالتها الشعورية بعد أن قذفت بابنها في اليم؛ بعقدٍ ينفرط أو بحبلٍ ينحل، فتتسارع رحمة الله إليها، وتربط ما انحل من عرى قلبها، وتنظم ما انفرط من أنين شعورها.

يقوله الحق تبارك وتعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾[47]، أي: "ثبتناها بالصبر حتى لم تظهر ما بها من الوجد"[48] .

إن دور الأم في الأزمات دورٌ رائد تترجمه شجاعة أم موسى عليه السلام في "التخلص من الوجد لإنقاذ الولد"، معادلة يصعب فهمها، إلا إن كان الغيب ملهمها وحاديها؛ ذلك أن إلقاؤه في اليم﴾ هو الهلاك بعينه من منظور البشر، وهو النجاة في أبهى أشكالها في تجليات الوحي، إنها أعلى مراتب اليقين التي يورثها القرآن للأمهات في مواجهة فتن العصر.

---

44 سورة آل عمران الآية 35

45 جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري: 331/6.

46 تفسير الوسيط، سعيد بن علي القحطاني:80-234/1.

47 سورة القصص الآية 10

48 جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري: 531/19-534.

وها نحن ذا نشهد الفتن في الألفية الثانية؛ وكأنما اجتمعت تحديات العصور كلها معاً، فهذا طغيانٌ هنا، وانحطاطٌ أخلاقيُ هناك، وثالثٌ يجسد ما توعد به ابليس ابن آدم من غوايةٍ بتغيير خلق الله، ورابعٌ في الهيمنة المادية المفرطة، ولعل أجلى تلك التحديات يتمثل في تشويه القيم وطغيان المادة على الفطرة.. بل وتغوُّلِ الباطل على الحق حتى صار الطهر سُبَّةً على أهله وصار إخراجهم مهمةً لازمةً على الفاسدين المفسدين.

إن ما جاء به القرآن من قصصٍ وأمثالٍ وعِبَر ليست للسرد التاريخي المجرد، ولا للمتعة الأدبية المُبهرة، ولا للإثارة المُشوِّقة المعجزة، إنها سُنن تتكرر في كل الأزمنة على اختلاف الأماكن والشخوص، فمن لدن أم موسى والذبح بدافع السيطرة والسطو على حقوق الغير ومقدراتهم واستعبادهم ديدن الظالمين.

إننا نرى اليوم ما تفعله آلة الحروب الظالمة، في مشهدٍ يعيد إنتاج فرعون وملئه في صورةٍ غايةٍ في السخرية من كل من تنَكَّب عن طريق الحق، فهم أولئك الذين شرفهم الله بأمانة الاستخلاف فخانوها؛ ليصبحوا هم الطغاة والقتلة.

وها هي أم موسى ووليدها يعودان للحياة فينا من جديدٍ، صورةً حيَّةً في كل أمٍ، جهزت ولدها حين خافت عليه ذل الحياة، وخشيت أن يطاله بطش الخنوع والخيانة، فألقته في النفق ليعيش بعزةِ وكرامة الثابتين القابضين على جمر المبادئ والقيم، إن كُتبت له النجاة وهذا وسام النصر، أو يموت ثابتاً على دينه.

لم يكن لهؤلاء الأبطال أن يكونوا لولا وجود أمهاتٍ جعلنَ القرآن نهجاً في أسرهن، بدءاً من رقيةٍ تسبق النوم، أو تصاحب ألماً ألمَّ بفلذات أكبادهن، مروراً بأذكار الصباح والمساء، وكل ذكرٍ في كل غاديةٍ أو رائحة من أيامهن، وصولاً الى ورد القرآن كوصيةٍ أغلى من كل كنوز الأرض يجعلن أمانتها في أعناق أبنائهن، وانتهاءً بجعل القرآن وديعةَ صدورهم مهما قلَّ منه، وأعظم

به إن كَثُر؛ ليجد الواحد منهم سلوته في كتاب ربه، فيترنم ويتنعم بآي القرآن كلما حزبه أمر، أو نابه هم، أو حاصره عدو، أو وشى به خائن، أو أسره جبان، أو أصاب هو من عدوه، أو أثخن فيه .

تلك هي أم موسى عليه السلام رأيناها حيّةً في كل امرأة وصلت قلبها بالقرآن، وجعلته شريان الحياة ومعيار النبض في قلب أسرتها ... حينها لم يعد عمق النفق يخيفها، ولا التواء مساراته يقض مضجعها، فقد ربط الله على قلبها كما ربط على قلب أم موسى، التي استأمنت أمواج البحر وليدها، وكلتاهما تعلمان علم اليقين أن المستودع عند الله لا يضيع، وأن حفظ الله أحصن من كل القلاع، وأوسع من كل الآفاق.

معوقات الاستخلاف الأسري في العصر الحديث

إنّ قراءة الواقع الأسري المعاصر تكشف عن فجوة عميقة بين المقصد القرآني من الاستخلاف وبين الممارسة التربوية اليومية؛ إذ لم تعد التحديات تقتصر على المؤثرات الوافدة من خارج الأسرة فحسب، بل باتت تكمن في **انحراف الوعي الوظيفي** للوالدية، فقد غلب النمط 'الرعائي' الذي يحصر نجاح الأسرة في كفاية الاحتياجات المادية والبدنية للأبناء، وهو ما أدى إلى تراجع 'الرسالية الروحية' في سلم الأولويات.

إنّ العودة للنموذج القرآني تقتضي إعادة تعريف دور الأبوين ليتحولا من مجرد موفرين للرفاه المادي إلى **مهندسين للهوية المستخلفة**؛ يهدفان إلى تحويل الفضاء الأسري من وحدة استهلاكية إلى **محضن تزكوي** أصيل، يتخذ من هدي الوحي ناظماً له، ومن القدوة الحية وسيلة لبناء الإنسان.

ولا يكتمل تأصيل الوالدية الرسالية دون رصد التحديات المعاصرة التي تعيق تفعيل نموذج الاستخلاف القرآني، ويمكننا تصنيف هذه المعوقات إلى:

1- طغيان النزعة المادية: انتقال من الرسالية إلى الاستهلاكية

وهنا تكمن خطورة تحول الأسرة من "محضن لتزكية الروح" إلى "وحدة

استهلاكية" غارقة في الماديات، وهذا التحول أدى إلى:

- **اختزال الوالدية في (التمويل) :** حيث أصبح دور الوالدين يقتصر على تأمين الرفاه المادي والجسدي، وهو ما يسمى بالرعاية المادية التي تغفل عن الإعداد الرسالي.
- **تآكل مفهوم التزكية :** في ظل السعي خلف الرفاه المجرد، غاب مفهوم "عمارة الأرض بالقيم"، واستُبدل به مفهوم "الصعود المادي الشخصي"، مما أفقد الأسرة صبغتها كأداة استخلافية تُعنى ببناء الإنسان الرباني.

3- السيولة الأخلاقية وهشاشة الحصانة الروحية

في ظل "العالم المفتوح" والتدفق المعرفي غير المنضبط، يواجه الاستخلاف الأسري تحدي "السيولة" التي تفتت الهوية، وهنا تبرز الحاجة إلى:

- **منهج (القول السديد):** وهو الوارد في قوله تعالى: ، وهذا القول السديد ليس مجرد صدق في الحديث، بل هو "دقة في التوجيه" و"سداد في الرؤية" يحمي الأبناء من التذبذب القيمي.
- **استلهام (الربط على القلوب):** كما في قصة أم موسى عليه السلام، من خلال تحصين الناشئة؛ لا بالمنع المادي فحسب، بل باليقين الذي يزرعه الوالدان في قلوب أبنائهم، وهو الربط الإلهي الذي يجعل الهوية المستخلفة صلبة أمام الفتن الفكرية والأخلاقية.

3- غياب "القدوة النماذجية" (التربية بالحال):

فأكبر عائق أمام الاستخلاف هو "التناقض بين القول والعمل" داخل البيت.

- فالأسرة تطلب من أبنائها أن يكونوا "مستخلفين"، بينما يمارس الوالدان حياة قوامها الاستهلاك والمادية، تعاني من فجوة تربوية.

- **الحل الرسالي:** يكمن في تحويل الوالدية إلى "هندسة للهوية"، حيث يكون الوالدان هما النموذج التطبيقي الأول للقيم القرآنية، مما يجعل الاستخلاف "حالة مُعاشة" وليس مجرد شعارات تُلقى.

إن مواجهة هذه التحديات تقتضي إحداث نقلة نوعية في الوعي الوالدي؛ بالانتقال من "دور الحماية الجسدية" إلى دور "الثغر الحضاري". والأسرة هي "خط الدفاع الأخير"، وإصلاحها وفق منظور الاستخلاف هو المقدمة الوحيدة والضرورية لإصلاح واقع الأمة وإعادة بنائها حضارياً.

المبحث الرابع: القيادة الحوارية: الأبوة من الرعاية إلى الهداية

الأب في التصور القرآني ليس مجرد مصدر للموارد المادية، بل هو "المهندس" الذي يصيغ شخصية الأبناء عبر الحوار، الصبر، والقدوة الحسنة، إن قصص الأنبياء تقدم لنا "دستوراً عملياً" في كيفية تحويل السلطة الأبوية إلى طاقة حب وبناء، بدلاً من أن تكون أداة قهر وإكراه، فالأبوة في القرآن الكريم قيادة حكيمة وتوازن بين هيبة القدوة وحنان المربي.

إبراهيم عليه السلام: الأبوة الحوارية

لقد كان مقام النبوة في ذات ابراهيم عليه السلام أكبر مسوّغٍ له لو أحضر ولده اسماعيل للذبح دون أن يحاوره، ولقد كانت تجاربه التي مرَّ بها في حياته الدعوية الحافلة بالمعجزات أكبر مبرر له لينفذ أمر الذبح في ولده دون أن يشاوره، ولكنها التربية الإيمانية التي تصنعها عناية الله وتلقيها في روع انبيائه ليكونوا معيار الرشد على مر الزمان: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾[49]، خطابٌ عجيبٌ مَهيب لو لم يتنزل به روح القدس على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم لكان ضرباً من الخيال، أَيُحاورُ المرء في إزهاق روحه ذبحاً ؟!! أيُساءل الابن في طريقة موته على يد والده؟!!

إنها النبوة وتكليفاتها؛ تخط للبشرية طريقاً للفهم في أقصى تطبيقات الأبوة والبنوة، فلئن كَلَّف الوحي نبياً بذبح ولده لإقرار شعيرة تعبدية، فإن

49سورة الصافات الآية 102 .

من معاني هذا التكليف أيضاً تقرير لقاعدة تربوية، فلا تعنت في الرأي والقرار ولا خروج عن الأدب والوقار.

ولن يصل الأمر بأبٍ مع ابنه للذبح مهما كان الحدث، ولكنها النماذج القرآنية النبوية تبرهن لكل الأجيال؛ مهما تعاقبت عليها الأزمان وتجددت فيها التحديات؛ أن الذبح سبقته المشورة وأن القبول جاء في أبهى صورة. فأي صورة أجلى من هذه الصورة للآباء؛ في بيان قابلية كل أمرٍ للحوار، وأي نموذجٍ أروع للأبناء من هذا النموذج على فضيلة الطاعة والإقرار، "وإنما أعلم ابراهيم عليه السلام ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر طاعته وصبره".

إنَّ "السلطة الأبوية القهرية" فعلٌ لم يعمد إليه إبراهيم عليه السلام في تنفيذ أمر إلهي، واستخدم "الحوار" بديلا عنه، لأن هندسة الأبوة في القرآن تعتمد بناء قناعة الابن بالفعل قبل إلزامه به.

يعقوب عليه السلام: الأبوة العاطفية الحكيمة

الأب هو "مصدر التفاؤل" في الأسرة والطاقة الدافعة للأبناء لاستدراك أخطاءهم، هذه المفاهيم المجردة تجسدها وصية يعقوب عليه السلام لبنيه حين فقد يوسف عليه السلام وأخاه فقال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوحِ اللَّهِ﴾[50]، "فيعقوب رغم فقده لولده عقوداً، كان يبث في أبنائه الأمل لا العتاب"[51]، والعاطفة عنده لم تكن يوماً ضعفاً، بل نوراً هادياً للفضيلة مرشداً لكل فعلٍ قويم.

فالأبوة القرآنية "أبوة استيعابية" تبني الجسور ولا تهدمها. والأب الناجح هو الذي يغرس القيم بالحب، ويواجه الأزمات باليقين بالله، محولاً المحن إلى دروس في الصبر والعودة للحق، مما يضمن بقاء الأسرة وحدة متماسكة أمام عواصف الحياة.

---

50 سورة يوسف، الآية 87.

51 معالم التنزيل، البغوي: 4/266-268.

المبحث الخامس: انتقال البركة والشؤم بين الأجيال

يرسخ القرآن الكريم مفهوم "الارتباط القدري" بين سلوك الآباء ومستقبل الأبناء، موضحاً أن العلاقة بين الأجيال ليست محض صلة نسب، بل هي ممرات تنتقل عبرها البركات أو التبعات. إن هذا المبحث يستعرض كيف يتحول صلاح الوالدين إلى "درع غيبي" يحمي الأبناء، وكيف يمكن لضلالهم أن يورث الأجيال قيوداً فكرية وسلوكية تحول بينهم وبين طريق الرشاد.

"ويكتمل هذا البناء بتبني (التربية بالحال) التي هي أبلغ أثراً من المقال؛ حيث يزرع الوالدان بتجسيدهما للقيم جينات الفضيلة التي لا تموت في نفوس أبنائهم، الذين يتأثرون بما يشاهدونه من يقين آبائهم أكثر من توجيهاتهم، وهذا يستوجب تحولاً في الوعي الوالدي من الاكتفاء بعقلية الحماية المادية وإشباع حاجات الجسد، إلى رحاب الرعاية الرسالية التي تعتني بتزكية الروح؛ فالمستخلف الصغير يحتاج إلى تحصين قيمي يسبق حاجته للغذاء المادي"[52].

قاعدة "الأثر الممتد": صلاح الأصول

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[53]، هنا يذكر لنا القرآن الكريم في مشهدٍ مليءٍ بالروعة والجلال للطيف أقدار الله بعباده، ذلك المشهد المتجسد في حفظ الله لغلامين لا يدركان كنه ما يجري في الملأ الأعلى، ولا يعرفان شيئاً عن عظيم تدبير الله لهما بالحفظ، والكفاية عن سؤال الناس حين يكبران، ومردُّ ذلك الحفظ وسبب ذلك الرزق المخبأ لهما في أستار الغيب؛ هو صلاح أبيهما، يقول الحق تبارك وتعالى في

52 التربية الوالدية: رؤية منهجية قرآنية، هشام الطالب وآخرون: 184، 242.

53 سورة الكهف، الآية 82 .

سورة الكهف في معرض قصة الرجل الصالح، مع نبي الله موسى حكايةً عن سبب إقامة الرجل الصالح لجدار متهدمً في القرية، رغم أن أهلها كانوا جاحدين لا يكرمون الضيف، يقول تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾، لقد حَفظهما الله بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهما صلاحاً[54]، وهذا الحفظ "فيه دليل على أن الرجل الصالح يُحفظ في ذريته، وتشملهم بركة عبادته في الدنيا والآخرة"[55].

التئام الشمل كرامةٌ للمؤمنين في الآخرة

فطر الله الوالدين على الأنس بقرب أبنائهما في الدنيا، وجعل هذا الأنس والقرب هبةً ومِنَّةً منه لهما في الآخرة، ذلك أنه تبارك وتعالى "يرفع الذرية إلى درجة الآباء لتقرّ أعين الآباء بلقائهم" كما قال تعالى: ﴿والَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[56].

وعلى النقيض من ذلك؛ فإن القرآن يحذر الأبناء من تقليد الآباء في الضلال، قال تعالى على لسان الكافرين في الآخرة؛ معللين سبب كفرهم في الدنيا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[57].

إن ضلال الأب بفساد معتقده؛ يحوله من قدوة إلى عائق؛ يمنع الابن من إدراك الحقيقة، مما يؤدي لمشهد الفداء المستحيل في يوم العرض والحساب قال تعالى ﴿يُبَصَّرُونَهُم يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾[58]، يصور هذا الموضع قمة الانكسار في الروابط الوالدية حين تنهار "الرسالية" ويحل محلها "الفساد"، حيث يقدم المجرم فلذة كبده فداءً لنفسه، وهو ما يعزز فكرة "مشهد الفداء المستحيل".

---

54 تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: 433/7.

55 الجامع لأحكام القرآن، الطبري: 467/22 .

56 سورة الطور، الآية:21.

57 سورة الزخرف، الآية: 23.

58 سورة المعارج، الآية: 11

الخاتمة و نتائج البحث

بعد هذه الجولة التأصيلية في رحاب الآيات القرآنية حول "إعداد الأسرة للاستخلاف"، نخلص إلى الخاتمة التي تجمع نتائج البحث في النقاط الآتية:

1. **أسبقية الإعداد:** أثبت البحث أن التربية في القرآن تبدأ قبل الميلاد بقرارات إيمانية، منها حسن اختيار الزوجين "المنبت الطيب"، وصلاح النية "النذر."
2. **القدوة الصالحة هي الأصل:** تبيّن أن صلاح الوالدين الشخصي هو أقوى أداة تربوية غير مباشرة، وهو "درع حماية" غيبي يحفظ الأبناء حتى بعد وفاة الآباء.
3. **تكامل الأدوار:** أظهرت النماذج القرآنية أن الأمومة سيادة وجدانية وتوكل، والأبوة قيادة حوارية وحكمة، لا يتصادمان، بل يتكاملان لصناعة الإنسان المستخلف.
4. **تجاوز الماديات:** أكد البحث أن وظيفة الأسرة تتجاوز "الاحتياجات الجسدية" إلى "التزكية الروحية"، وأن النجاح الأسري الحقيقي هو الذي يمتد شمله إلى الجنة.
5. **الاستخلاف أمانة بناء:** إن إعداد الأسرة للاستخلاف في القرآن الكريم هو مشروع إيمانيٌ بحت يبدأ بالنية، ويقوم على الصلاح الذاتي، ويثمر جيلاً ربانياً يحمل أمانة عمارة الأرض وإصلاحها.
6. **هندسة متكاملة:** أثبت هذا البحث من خلال مباحثه أن القرآن قدم "هندسة متكاملة" للحياة الأسرية، تجعل من البيت نواة لإصلاح الأرض، ومن الوالدين رسلاً للقيم، مما يحقق الغاية العظمى من الوجود الإنساني.

7. الاستخلاف في الأسرة يعني انتقال الإنسان من مرحلة (الاستهلاك المادي) إلى مرحلة (الإنتاج القيمي)، حيث يصبح الأبناء (أدوات إصلاح) كوني وليس مجرد أفراد في عائلة.

وتأسيساً على ذلك، ينتهي البحث إلى أن الصلاح هو أثمن ما يورثه الوالدان للأبناء، فهو الضمانة الوحيدة التي تتجاوز حدود الدنيا لتصل إلى نعيم الآخرة، وإن مسؤولية الوالدين في الاستقامة الشخصية هي في حقيقتها أعظم استثمار في مستقبل أبنائهم، وبدونها يصبح النسب مجرد رابطة مادية تنقطع عند أول هول من أهوال القيامة.

توصيات البحث

1. **التوصية التربوية:** ضرورة انتقال الوالدين من "عقلية الممول" في الأسرة لتوفير الطعام واللباس، إلى "عقلية المستثمر" بغرس القيم والتزكية الروحية.
2. **التوصية التعليمية:** إدراج مادة "الوالدية الرسالية في القرآن" ضمن المناهج التعليمية والدورات التدريبية للمقبلين على الزواج لتأهيلهم لقيادة أسر الاستخلاف.
3. **التوصية الوعظية:** التركيز في الخطاب الديني على "الحوار الأسري" كبديل للقهر التربوي، اقتداءً بمنهج الأنبياء عليهم السلام (إبراهيم، ويعقوب، وزكريا) وكذلك لقمان الحكيم.
4. **التوصية الحضارية:** دعوة المؤسسات الإعلامية والتربوية لإبراز النماذج الأسرية القرآنية كقدوات عصرية، وترسيخ مفهوم أن البيت هو الثغر الأول في حماية الهوية الحضارية للأمة.
5. **التوصية الفردية:** دعوة كل مربٍّ إلى مراجعة "صلاحه الذاتي" كأول خطوة في طريق إصلاح ذريته، ففاقد الشيء لا يعطيه، والذرية مرآة لأصلها.

إن الأسرة المستخلفة ليست مثالية خالية من الأخطاء، بل هي أسرة موصولة بالوحي، تستدرك الخطأ بالتوبة، وتواجه المحن بالصبر واليقين، وتضع نصب عينيها دائماً قوله تعالى: ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾[59] كصمام أمان لمستقبل أجيالها.

المصادر و المراجع

1. التربية الوالدية: رؤية منهجية قرآنية، هشام الطالب وآخرون، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2016م .
2. .تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق سامي بن محمد السلامة، الرياض، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1420هـ .
3. .التفسير الميسر، نخبة من العلماء، المدينة المنورة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1430هـ
4. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (تفسير السعدي)، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1420هـ.
5. جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)، محمد بن جرير الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1420هـ .
6. الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1384هـ .
7. غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، محمد بن أحمد السفاريني، مصر، مؤسسة قرطبة، 1414هـ .

59 سورة النساء، الآية: 9.

8. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود بن عمر الزمخشري، بيروت، دار الكتاب العربي، 1407هـ.
9. معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، الرياض، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1417هـ .
10. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دمشق، دار القلم، بيروت، الدار الشامية، 1412هـ.

English Transliteration of Bibliography

1. Al-Tarbiyah al-Wālidiyyah: Ru'yah Manhajiyyah Qur'āniyyah, Hishām al-Ṭālib wa Ākharūn, al-Ma'had al-'Ālamī lil-Fikr al-Islāmī, Ṭ. 1, 2016.
2. Tafsīr al-Qur'ān al-'Aẓīm (Tafsīr Ibn Kathīr), Ismā'īl ibn 'Umar ibn Kathīr, taḥqīq Sāmī ibn Muḥammad al-Salāmah, al-Riyāḍ, Dār Ṭaybah lil-Nashr wal-Tawzī', 1420 AH.
3. Al-Tafsīr al-Muyassar, Nukhbah min al-'Ulamā', al-Madīnah al-Munawwarah, Majma' al-Malik Fahd liṬibā'at al-Muṣḥaf al-Sharīf, 1430 AH.
4. Taysīr al-Karīm al-Raḥmān fī Tafsīr Kalām al-Mannān (Tafsīr al-Sa'dī), 'Abd al-Raḥmān ibn Nāṣir al-Sa'dī, taḥqīq 'Abd al-Raḥmān ibn Mu'allā al-Luwayḥiq, Bayrūt, Mu'assasat al-Risālah, 1420 AH.
5. Jāmi' al-Bayān fī Ta'wīl al-Qur'ān (Tafsīr al-Ṭabarī), Muḥammad ibn Jarīr al-Ṭabarī, taḥqīq Aḥmad Muḥammad Shākir, Bayrūt, Mu'assasat al-Risālah, 1420 AH.
6. Al-Jāmi' li-Aḥkām al-Qur'ān (Tafsīr al-Qurṭubī), Abū 'Abd Allāh Muḥammad ibn Aḥmad al-Qurṭubī, taḥqīq Aḥmad al-Bardawnī wa-Ibrāhīm Aṭfaysh, al-Qāhirah, Dār al-Kutub al-Miṣriyyah, 1384 AH.
7. Ghidhā' al-Albāb fī Sharḥ Manẓūmat al-Ādāb, Muḥammad ibn Aḥmad al-Safārīnī, Miṣr, Mu'assasat Qurṭubah, 1414 AH.
8. Al-Kashshāf 'an Ḥaqā'iq Ghawāmiḍ al-Tanzīl, Maḥmūd ibn 'Umar al-Zamakhsharī, Bayrūt, Dār al-Kitāb al-'Arabī, 1407 AH.

9. Ma'ālim al-Tanzīl fī Tafsīr al-Qur'ān (Tafsīr al-Baghawī), Abū Muḥammad al-Ḥusayn ibn Mas'ūd al-Baghawī, taḥqīq Muḥammad 'Abd Allāh al-Namar wa-'Uthmān Jum'ah Ḍumayriyyah wa-Sulaymān Muslim al-Ḥarsh, al-Riyāḍ, Dār Ṭaybah lil-Nashr wal-Tawzī', 1417 AH.
10. Al-Mufradāt fī Gharīb al-Qur'ān, al-Rāghib al-Aṣfahānī, taḥqīq Ṣafwān 'Adnān Dāwūdī, Dimashq, Dār al-Qalam; Bayrūt, al-Dār al-Shāmiyyah, 1412 AH.